مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 547 - 567 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

سؤال الذات والمعنى في شعر ما بعد الحداثة :

مقاربة تأويلية لقصيدة النثر الجزائرية(مكاشفات في مشهد الموت) لعثمان لوصيف أنموذجا

The Question of Self and Meaning in Postmodern Poetry:

An Interpretive Approach in the Algerian Prose Poem "Exposures in the Scene of Death" by Othman Lousif as a Model

سليمة مسعودي / salima messaoudi *

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة.

جامعة باتنة 1 (الجزائر)،

University of Batna 1 (Algeria)

salima.messaoudi@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2022/02/26	تاريخ القبول: 2022/03/30	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

عرف إنسان ما بعد الحداثة وضعا من التشظي والاغتراب الوجودي، وهو ما استفز لديه الأسئلة الوجودية الأساسية حول الذات والكون والبحث عن المعنى، خصوصا في الشعر الذي يعد مرآة تعكس ما تعجز الفلسفة عن الوصول إليه من مناطق عميقة من الغيب واللاوعي.

وتعد قصيدة النثر أقوى تمظهر شعري لوضع ما بعد الحداثة بفعل انزياحها عن المؤسساتية والفكر الجاهز، وتبني نسق الحفر والتفكيك في الوجود البشري، والبحث عن أسرار الكينونة، وهو ما دعا إلى دراسة موضوع الذات والمعنى، من خلال مقاربة تأويلية لنص " مكاشفات في مشهد الموت " لعثمان لوصيف.

الكلمات المفتاح: سؤال الذات؛ شعر ما بعد الحداثة؛ قصيدة النثر؛ أسرار الكينونة.

Abstract :

Postmodern man experienced a state of fragmentation and existential alienation, which raised existential questions about the self, the universe and the search for meaning. This is especially true in poetry, which is a mirror that reflects deep areas of the unseen and unconscious that philosophy is unable to reach.

* سليمة مسعودي: salima.messaoudi@univ-batna.dz

The prose poem is considered the strongest poetic manifestation of the postmodern state as it abandoned institutionalization and ready thought and adopted the method of digging and dismantling in human existence, and the search for the secrets of being. This, thus, is what called for research on the subject of self and meaning, through an interpretive approach to the text "Eposures in the Scene of Death" by Othman Lausif

Keywords: The Question of Self ,Postmodern Poetry, The prose poem, the secrets of being

مقدمة :

يفترض الوضع ما بعد الحداثي المشحون بالارتياب والشك القلق والتشظي والاغتراب وفقدان الهويات طرح سؤال ماهية الذات الإنسانية بإلحاح، خصوصا لما أفرزته الحداثة من تداعيات؛ وما خلفته من شروخ في طبيعته الإنسانية ذاته، إذ تمحورت العلوم التي أفرزتها حول الإنسان ككائن مركزي في دورة الكون والطبيعة، وعملت على محاولة الخروج به من الوضع البشري المحدود، نحو آفاق أخرى تجعل من الحياة تطورا مستمرا، يستطيع أن ينفلت من قبضة الانحباس في الأرضي البشري ومحدوديته المكانية الزمانية وقدراته، بحيث يبدو كل شيء خلقا وصناعة إنسانية، لدرجة أن الدماغ البشري الذي يمثل التمظهر المادي والطبيعي للأفكار، لم يعد بإمكانه البتة مواكبة هذه التطورات، وناب الآلي التقني (الذي هو صنيع يديه) عنه، كآلات تفكر وتعمل وتنتج، ونابت الرياضيات واللوغاريتمات في تسيير الحقائق العلمية ورصدها وتمثيلها. كما أن خطر المكننة توصل إلى أن يشكل تهديدا للإنسان صانعه، ففي حين حرره من عبودية العمل لتؤدي الآلة دوره، إلا أنه أصبح مهددا لكيانه البشري ذاته، ككائن فاعل دينامي مؤثر ومنتج، ولكينونته، فالعمل لا يشكل عبودية بقدر ما يشكل ضمان حياة وتحررا بالمفهوم السياسي الفلسفي:" إن الوضع البشري للعمل هو الحياة ذاتها"[1]، بحيث يضمن العمل بقاء الفرد والنوع معا، ويخلق بالفعل تجاوزه المستمر لشروطه التاريخية، ويتجاوز بالأثر هشاشة الحياة الفانية.

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تجاوزت كينونته وحياته اشتراطاته الطبيعية، ليكون خالق اشتراطات كينونته باستمرار، إذ لم يبق منحبسا داخل اشتراطات الطبيعة، بل يعمد باستمرار إلى صناعة شروط حياته، مما يجعله في سؤال دائم حول هذه التحولات، وحول طبيعته البشرية التي تتعلق بخصوصيات وجوده البشري الأساسية، مما جعله في سؤال مستمر حول طبيعته الإنسانية وعلاقته بها:" إن مشكل

الطبيعة البشرية هو مشكل أوغستيني " لقد أصبحت مشكلا بالنسبة إلى نفسي ذاتها" يبدو غير قابل للحل، وذلك بالنسبة إلى المعنى النفسي الفردي، كما هو بالنسبة إلى المعنى الفلسفي العام"[2] وهذا ما يفرض طرح سؤال الذات : من أنا ؟ الذي يشكل البحث عن الخصوصية الإنسانية داخل الوضع البشري المبني على ما مارسه الإنسان من تحور في الطبيعة والأشياء، وحتى في مفاهيم المكان والزمان والقيمة، وهو ما يضيف سؤالا آخر صار يطرح بإلحاح: ما الذي أضافه الإنسان لكينونته البشرية؟ وهل ما يضيفه ثابت أم متغير؟ وهذا في ذاته يطرح سؤالا آخر أكثر دقة وجدوى: ما الذي أضافته الحداثة لسؤال الكينونة البشرية من أنا ؟ وهو السؤال الذي يطرحه الوضع ما بعد الحداثي نتيجة التمزقات والمتاهات والانجراحات والأمراض التي حاصرت بها الحداثة الإنسان المعاصر.

أما سؤال: ما أنا ؟ فإنه يؤوب إلى الشرط الطبيعي البحت للوجود البشري، لكن السؤال الأكثر جدوى منه فهو: هل حدث خلل في تكوين الطبيعة البشرية للإنسان بفعل تحولات كينونته ؟ و يبدو هذا السؤال أكثر حدة وانجراحا من سابقه، لأن التحولات المهولة التي سببتها الحداثة في الطبيعة البشرية تبدو جسيمة الأثر في التكوين الطبيعي الأصلي والأولي للإنسان .

هذان السؤالان الأوغستينيان بامتياز أصبحا يفرضان حضورهما بشكل كبير في إنسان ما الحداثة، بكل انهياراته وركامات خسائره وانكساراته وأرباحه ومكتسباته وتفككاته وتقنوياته. بل وأفرزا قلقا وجوديا حادا وخوفا من المجهول، بحيث أصبح القلق والتوتر ريتما عاديا للحياة، والخوف من الخواء وفقدان المعنى والقيمة هاجسا ملازما للذوات، وتفكك الهويات مصيرا للأفراد والجماعات البشرية الموزعة في شتات جغرافي ونفسي كبير، وهو ما ولد العنف والارهاب كنوع من ردود الأفعال المضادة، وطريقة لاستعادة الهوية المسلوبة وجلب الاعتراف.وهو نفسه الذي رفع صوت الهامشيين في نوع من المقاومة الثقافية لطغيان المركزيات.

إن ما يميز وضع ما بعد الحداثة تحرر الهامش من هيمنة المركز، وانهيار السرديات الكبرى، وانشطار المجتمعات الجماعية كالقوميات والوطنيات، وعليه فقد تحررت النزعة الفردية من سلطة الأنظمة بمختلف أنواعها، مما جعلها تبحث عن تأكيد فاعليتها:" أصبحت بحثا قلقا عن الذات الفاعلة، عن الكائن لذاته، بصفته مبدأ التقييم الأوحد القائم بذاته، في حين أثبتت كل الأخلاقيات الاجتماعية، لا سيما القومية منها، أو الجمهورية عجزها وضررها منذ زمن بعيد"[3] فالإشكالية لم تبق مطروحة في العلاقة بالآخر، بل

أساسها كامن في علاقة الذات بنفسها، والتي تشهد في عصر العولمة والاستهلاك وعالم الاتصالات تفككا وتمزقا عميقا، وسع الهوة بين الذات وإدراكها، بفعل وضع الاغتراب والتشظي الذي تعيشه.

ويشكل البحث عن الذات ماهية وهوية وكينونة أهم أشكال البحث عن المعنى، وهو ما نجده في نصوص من شعر ما بعد الحداثة، بمختلف وضعيات التمثل التي ترتأيها.

أولا– الذات وأسئلة المعنى والوجود:

يؤوب بنا البحث في المعنى داخل الوجود الشعري إلى البحث في الذات البشرية ككائن ينتج المعنى، وكائن واع يبحث عن المعنى في العالم، فالذات لا تحقق وجودها إلا إذا أعطته معنى معينا، وكل ذات رهينة معناها، هذا المعنى الذي يتشكل أسئلة في وعي ولاوعي الذات، و يتشكل تأويلا في مختلف تمظهرات المعرفة البشرية. وعليه فإن أسئلة الذات هي تأويل لمعناها بشكل أو بآخر : " إنها في النهاية عملية تأكيد حقيقة الإنسان ومعناه وحضوره إلى هذا المعنى على الدوام، تدعم فكرا يجهز الحضور الصريح ويجهزه الحضور التأويلي المتبادل[4]" فسؤال الذات حول المعنى هو نفسه سؤال الماهية والحقيقة، وهو ما يكفل إمكان وجود معرفة، وهو نفسه السؤال الذي ينطلق من الفكر الديكارتي الذي أكد بدوره على وجود ذات مفكرة وموضوع مفكر فيه، فالتفكير هو طرح السؤال حول المعنى في وعي الذات، وهو ما يحقق لها وجودها حسب الباراديغم الديكارتي، حيث تنفصل الذات عن موضوعها لتتأمله بوعي عقلاني، حسب الفلسفة العقلانية، في حين أن الذات نفسها هي الذات المفكرة المتسائلة وهي نفسها موضوع المعرفة حسب الفلسفة الميتافيزيقية، وهي الذات والموضوع والوعي بهذه المعرفة أيضا حسب سارتر والفلسفة الظواهرية:" كنا نقول إن الوعي هو الكائن العارف من حيث هو كائن، وليس من حيث هو موضوع للمعرفة[5] "بحيث يكون الوعي بعدا كينونيا للذات العارفة، متجاوزا بها الظواهر الحسية، ف"المعرفة هي أن نعي أننا نعرف[6] "

فالوعي هو البعد الثالث في المعرفة، الذي يربط الذات بموضوعها، وهو يشكل الانطلاق من الذات في اكتشاف ذاتها وموضوعها، وهو قائم ككينونة بالنسبة لها. بل هو كينونة متفكرة في ذاتها انطلاقا من تشكل الموضوع فكرة وحياة عن طريق وعي الذات له عند هيجل، والذي يؤكد أن : " الموضوع إنما صار حياة عبر هذا التفكر في داخله. أما ما يفرده الوعي بالذات عن ذاته – من حيث يوضع كائنا _ على مجرد الوجه الذي للإيقان والإدراك الحسيين. وإنما هو كينونة متفكرة في ذاتها[7] "

وعليه يمكن القول إن المعنى كامن في العلاقة الثلاثية التي تربط الذات والوعي والموضوع، فكل جدلية ثنائية وثلاثية تمظهر جانبا من المعنى، وتسعى إلى الاقتراب من المعنى النهائي (اليقين والحقيقة المطلقة).

وينتج المعنى عن وضع الامتلاء الذي تحققه هذه الذات، بما تؤمن به من منظومات فكرية وما تكتسبه من قيم وأخلاقيات، وما تتوصل إليه من قناعات شخصية حول الوجود والحياة والذات والآخرين والعالم والأشياء، وما تؤديه من أفعال، وما تحققه من إنجاز. فالمعنى هو ما تبنيه الذات لنفسها كذات مدركة، وتقاوم كل مساس به، وهو ما يخرجها من طور البدائية نحو الذات الواعية الفاعلة، مع أنه بعد كل شوط تقطعه هذه الذات نحو المعنى، ومهما كانت درجة إحساسها بالامتلاء والرضا، نجدها تشعر أنها ما زالت بعيدة عن نيل ما تريد، وأن معناها ما زال مطلبا بعيد المنال، وأن هنالك أبعد من المعنى ما تريد أن تصل إليه، وهو ما يطلق عليه لوك فيري " معنى المعنى"، ولا تختلف في ذلك عن إدراك الغايات القريبة من تفاصيل حيواتنا اليومية، وتحقيق معانينا المستهدفة من ورائها، إذ نحس بالرضا وتحقيق ما أردناه، لكن معنى أكبر وأعمق ما يزال ينادي لأجل أن نهب لتحقيقه :" ففي الحياة اليومية نحن نعرف دون شك، في كل لحظة، لماذا علينا أن ننجز هذه المهمة أو تلك المفروض أنها مفيدة؛ ولكن فائدة هذه الفائدة نفسها تظل في معظم الأحيان عندما يحدث لنا أن نفكر فيها، غامضة ومشكوك في أمرها. إن"معنى المعنى"– أي الدلالة النهائية لكل هذه الدلالات الخاصة – يفلت منا دوما. وليس لهذا الانطباع في الغالب إلا طابعا عابرا إذ تكفي العودة إلى أنشطتنا العادية للتخلص منه[8]". فمن خصوصيات المعنى في الوجود الأنطولوجي للإنسان أنه غير مكتمل ولانهائي، ولا يمكن الوصول إليه، إنه كائن زئبقي؛ كلما ظن الإنسان أنه أمسك به، وجده منفلتا من بين أصابعه، وهو ما جعل الإنسان ذاته كائنا يطور نفسه وقدراته ومكتسباته وثقافته باستمرار، ففي طريق البحث عن المعنى وجد الإنسان العلوم والمعارف والفنون، إنها معانيه التي تتطور باستمرار، وتأخذ بين الحين والآخر صورا وأبعادا جديدة، وما حركية تطورها وصيرورتها إلا هذه السبل في البحث عن المعنى، وفي هذا الطريق ذاته ستبقى في تطور مستمر، وستكتشف الكثير من الحقائق والمعاني التي يكمل بعضها بعضا، وينقض بعضها بعض، وما مظاهر البناء والهدم ذاتها إلا صور هذه التحولات والتغيرات.

إن المعنى والبحث عنه هو الجدلية التي أسست لفعل المعرفة كنسق وجود بشري يختلف عن غيره، المعنى الذي يتحقق عبر تاريخانية التحولات الإنسانية، ليكون متحولا متطورا، رغم جينات الأصل البشري

الذي ينطلق منه، المعنى الذي تتوالى المعارف والنصوص لتؤكد له أوجها متعددة، ولكنه يبقى الهوية غير المكتملة والرجاء بعيد المنال.

و المعنى الذي لم يبق حياديا إزاء الطبيعة ،وعمل على إعادة التكوين المستمرة للجوهر الإنساني بالعودة الدائمة به إلى ينابيعه البكر ومنابته الأولى، إلى الموناد التي شكلت الجواهر الأولية للعناصر والكائنات، ونراه يشكل في الشعر حنينا دائما للانمائي، وبرغبة الالتحام به، وهو نفسه ما خلف حالات التشظي والتفكك والقلق والاضطراب الذي تعاني منه الذوات الشاعرة في تقلبها بين المفاهيم بحثا عنه، خصوصا في هذا الوضع البشري الذي استحالت فيه البشرية إلى ضحية في يد مصفوفة العولمة عبر الإعلاميات والبرمجيات والصناعة التي أحالت الفن كغيره من القيم إلى سلعة استهلاكية ووسيلة سطحية للاستمتاع والتسلية، في عصر يشهد أوج عبادة السلع بصنميتها الفيتشية التي سيطرت على علاقات البشر، و كرست الآلية والاستهلاك ورواج المنفعة المادية الخالية من البصمة الإنسانية وروح القيمة والمعنى .

إن تراجع المعنى أو تلاشيه أو غيابه ارتهن عند اللحظة التي غاب فيها أثر المقدس عن الحياة الإنسانية، وتملص الإنسان عن طبيعته التاريخانية القائمة على المراكمات المعرفية، فالعلم الذي جاء ليعوض حاجة الإنسان إلى الأديان، صور هذه الأخيرة على أنها بنى مثالية خيالية لا أساس لها من الواقع والواقعية، واعتبر أن الأنظمة السياسية هي التي فرضتها عبر العصور المختلفة كأداة تمكنها من التحكم في الأذهان وإخضاع الشعوب، إنها ليس أكثر من أدوات للهيمنة والسلطة، بما تفرضه على الحياة البشرية من قيود وقوانين تحد من ممارسة الحياة، وتقلص من حضور الكينونة الفردانية للذات، وتحتم عليها الانتظام في جماعات، وانحسارها فسح المجال لسيطرة الدنيوية و زوال المعنى، مما دفع إلى حالات التشظي وانعدام التوازن النفسي والوجودي، وانهيار المجتمعات، وابتذال الشر، وزوال القيم والأخلاق، وهو ما دفع بالعالم العلماني لوك فيري إلى الاعتراف بذلك في كتابه" الإنسان المؤله أو معنى الحياة" في قوله:" كان معنى المقدس (المقصود به هنا المقدس الديني السماوي على وجه الخصوص) يلهم كل مجالات الثقافة البشرية، من الفن إلى السياسة، ومن الميثولوجيا إلى الأخلاق، شيء وهمي ربما، ولكنه عظيم . فهل يمكن لأخلاقياتنا الخالية من كل تعال أن تعوض هذا الاختفاء للإلهي ؟ وهل ينبغي لها أن تفعل ذلك ؟ وهل يمكن لحجب الحكمة القديمة أن يكون أساسيا إلى درجة أن المسألة الجوهرية المتعلقة بمعنى الحياة قد صارت ببساطة لاغية وغير ذات موضوع ؟[9]" .

إنها حالة من الاغتراب والتشيؤ في مجتمع الصناعة والآلة و بيروقراطية الإدارة التي فرضت أسلوبا منمطا من التفكير بالعقل الأداتي والعقلانية التقنية حسب مدرسة فرانكفورت.

ثانيا– الذات الشاعرة والبحث عن المعنى في قصيدة النثر:

وتشكل الذات الشاعرة ذاتا مقاومة في كل العصور لكل أشكال نفي الذات وتلاشيها، وما الشعر إلا تحقيق لكينونة ووجود، وعليه فإنه في نزال مستمر ضد الموت بمختلف تمظهراته، والذات الشاعرة ذات فاعلة كوعي، وعي يطلب التحرر ويمارس وجوده في البحث عن المعنى داخل الأشياء والطبيعة وروح العالم ومونادا‌ته، الذات الحية الحيوية في انطلاقها الدؤوب في مغامرة لا تتوقف بحثا عن المعنى؛ المعنى العابر للتاريخ والإنسان والقيم، والذي يبقى في حالة تشكل دائم، بعيدا عن القولبة والانغلاق في مفاهيم نهائية وقوالب جاهزة، في كل العصور. فالشعر مغامرة البحث عن المعنى؛ عن الذات، وهو بهذا نوع من المقاومة، مقاومة الاستلاب؛ استلاب العالم الخارجي للذات، وتحريرها الدائم من مختلف أشكال الخطابات الجاهزة، ومن تمادي العقلانية والتقنية والنفعية في تغييب الذات والإنسان.

وإذا كان كل موضوع مرتهنا بذات عارفة، متسائلة باحثة فإن الذات في الشعر هي العارف والمعروف في آن، لأنها تبحث عن حدودها فيما تبحث عن معناها، وهو البحث عن الماهية والجوهر، الذي يبدو في ظاهر الأمر غريبا منفصلا عنها، لكنه في الحقيقة ملتحم به وملابس له، وهو ما انتبه إليه رولان بارت الذي رأى أن الذات العارفة موجودة في كل موضوع للمعرفة، من خلال سؤالها عنه، وتمثيلها لمعرفته : " يوجد جوهر الشيء (جوهر المعروف) منفصلا عن وعي الذات العارفة، ويجعله نموذج السؤال متصلا بهذا الوعي، بكيفية ينطوي بها هذا التقليد على تغذية مضاعفة لحضور الذات العارفة. ذلك أن هذه الذات حاضرة تأويليا _ منذ البداية _ في علامة الاستفهام ويضاعف من حضورها السؤال عن الماهية، أضف إلى هذا أن أية إجابة محتملة ستظهر جوهر الشيء من خلال تمثيله لغويا أمام الذات، بطريقة تضمن ليس حضور الشيء وحده، وإنما أيضا وبالدرجة الأولى حضور الذات التي تمثل حضورها ثانية من خلال حضور الشيء"[10] فحضور الموضوع كسؤال واستفهام أمام الذات فيه حضور مضمر لها، والبحث عنه وتمثيله هو حضور مضاعف آخر، وعليه فإن المعنى والحضور والحقيقة الكامنة في المعرفة تحوي داخلها إضافة إلى الموضوع المعروف ذاتها العارفة وقد تحولت بدورها إلى موضوع معروف. وهي بذات الفعل المستفهم المؤول لا تكتفي باستعادة العالم إلى مجالها، بل تستعيد معه ذاتها أيضا:" الإعلان عن تمامية الذات بعد إضافة موضوعها إليها _ ذلك الموضوع الذي ليس سوى نفسها_ ثم تأكيد هذا الإعلان عن

حقيقتها وحضورها من خلال استرداد العالم (مجال وجودها المثبت) .إنها عملية رفع وتسوية تسترد الذات معها حقيقتها التي تحضر بها إلى نفسها مثلما تسترد الذات معها حقيقتها التي تحضر بها إلى نفسها مثلما تسترد العالم"[11]

إن المعنى الذي تسعى إليه الذات ليس بعيدا عنها، بل كامن فيها، وفي قدرتها على معرفته والتواصل معه، والإفصاح عنه، حتى وإن كان كامنا في الطبيعة، فالإنسان باعتباره كائنا منتميا إليها، كأي حيوان، سيحقق تعاليه على حيوانيته في الوعي الذي تتزود به ذاته، والذي تمارسه عليها وعلى الطبيعة معا، وهو الوعي غير المكتمل الذي يجعل من الإنسان الحيوان غير المكتمل، الواعي باستمرار، والمحقق لذاته بوعيه هذا، المتأمل فيها قبل أي شيء آخر، والمدرك أن العالم لا يمكن معرفته إلا من خلال وعي الذات، والمدرك أيضا أن الذات تبقى في حاجة دائمة لأن تعرف نفسها وتعثر على معناها، لذلك يرى نيتشه : " أن الإنسان يجد في نفسه ما لا يجده في أي مكان من العالم، شيئا غير قابل للمعرفة وغير قابل للبرهان، شيءا غير مادي يفلت من محاولات رصد وبحث، إن إدراك وجوده ليس فعلا موجها للذات، بل هو فعل يرتد إليها"[12]. هذا التمركز في الذات ازدادت وتيرته وتصاعد مستواه مع ما يشهده الوضع ما بعد الحداثي من التشتت الهوياتي الجغرافي، والتشتت النفسي وفقدان التوازن، والشعور بالاغتراب، حيث فقد الذات الثقة في كل شيء، ولم تعد هنالك مرويات تستند عليها وحقائق تطمئن إليها، فوجدت نفسها في حالة فصام عن التاريخ والأنظمة الاجتماعية التي تلاشت، مما استدعى تذبذب العلاقة مع الأنا المضطربة القلقة في علاقتها مع المعنى في انعدام اليقينيات، ومع الآخر.

ويرتد الشعر بنزعته الفردانية التذوتية إلى البدء المدرك للوجود البعيد عن الفراغية والتكرار، وللفناء، والرغبة في الخلود والحياة الأبدية، والوعي البشري الذي يمضي في خط مستقيم، في حين أن الكون والطبيعة من حوله لا يسيران إلا في حركة دائرية، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعي وجوده، ويتجاوز به غريزة البقاء بالتناسل، نحو البقاء بطرق أخرى عن طريق البحث عن الخلود بالأثر كوجود فردي، حيث الفن أجمل وأقوى سبل البقاء الإنساني ذي النزعة الفردانية:" إن واجب الفانين وعظمتهم الممكنة، يكمنان في قدرتهم على إنتاج الأشياء _ أعمال ومكتسبات وكلمات_ وهي أشياء تستحق الانتماء وتنتمي على الأقل إلى نقطة معينة، إلى الديمومة من دون نهاية، بحيث يتمكن الفانون بواسطتها من الحصول على مكان في كوسموس يكون فيه كل شيء خالدا إلا هم، فهم مؤهلون على الأفعال الخالدة، وقادرون على ترك آثار لا تفسد، فإن البشر، ورغم فنائهم الفردي، يرتفعون إلى خلود يكون خاصا بهم،

ويثبتون أنهم من طبيعة إلهية"[13]فكل وجود بشري هو من طبيعة فردانية، يحقق كينونته عن طريق أعماله الخاصة، ويحقق خلوده عن طريق إنتاجه الذي يستمر بعد الموت .

إن انكتاب الذات شعريا هو نوع من الفن الذي يقاوم الموت، ويقاوم تلاشي إنسان القيمة في هذا الوضع ما بعد الحداثي الذي شيأ كل معنى، وأقام الاستهلاك قانونا لحياة البشر؛ استهلاك القيم والعلاقات والأشياء المادية، وحتى الوقت والمكان والمشاعر، في عصر العولمة كنظام حياة عالمي، فرضته الإمبريالية الغربية التي هيمت على العالم باقتصادياتها وصناعاتها الثقافية (الإعلام، الأنترنيت بكل ما تستدعيه من وسائل التواصل الاجتماعي)، بما تفرضه من أنساق ذهنية وسلوكية وثقافية، مستبدلة بها أنماط التفكير التاريخية، التي تعمل على تمييعها وإذابتها، وزلزلة رسوخها وإماتتها تاريخيا، إنها سردية "الحداثة السائلة "التي عملت على : " إذابة وتمييع مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكيانات الثابة المستقرة، أو الكيانات التي تستمد بقاءها واستمراريتها من داخله على نحو ثابت(البنى الاجتماعية، والروابط الإنسانية، والنماذج السلوكية، والنماذج القومية، وما إلى ذلك"[14]

ولم تكن قصيدة النثر نوعا أدبيا منزاحا عن المؤسساتية الشعرية العربية، وتجاوزا لأستطيقا الحداثة وحسب، بل هي مرحلة وجودية قائمة بذاتها، تقوم على تأويل الكينونة وشعرنة الحياة انطلاقا من التحولات الكبرى في مفاهيم الحياة ومعطيات الوعي البشري وتنامي نزعة الفردية والخروج عن مؤطرات الفكر الجماعي في سياق البحث عن يقين فردي وهوية وكينونة، وطلب النجاة من وضع الشتات والعدمية والخوف والموت والنهايات، ما دفع الشعراء إلى البحث عن إيقاعاتهم الخاصة، وفق ريتم التمرد والتفرد، فكان الانطلاق من الذات في البحث عن المعنى ومونادات الوجود أبرز تمظهر فلسفي انطلقت منه هذه القصيدة، ففي عصر الما بعد والنهايات والشك وموت اليقينيات لم يبق أثر للمعنى الثابت الجاهز الجماعي، وارتد المنطق الشعري إلى أصله الأول في البحث عن المعنى والحقيقة .وهو ما جسدته كتابة الذات وتمثلاتها في قصيدة النثر بوصفها وعيا ما بعد حداثي، يخضع الواقع والمعرفة لمنطق المساءلة والحفر والتفكيك، بعيدا عن القواعدية والسكولائية .

وتقيم قصيدة النثر حيث يتسع مجال الحرية في الإبداع إلى أقصى مداءاته، مفتوحا على مجال الرؤية والتشكيل معا، فكانت كتابة للذات بامتياز، حيث تنبثق من التجارب الشخصية للشعراء، المفتوحة على البحث والمغامرة، والنائية عن القواعدية والنماذج النمطية، تسعى لتحقق كينونتها الوجودية والشعرية بعيدا

عن المألوف والعادة، فكانت كتابة مساءلة وقلق وصدامية وتحول، ترفض الانصياع للمرجعيات التاريخية والرسوخيات الجمالية، وتسعى للتجاوز ذاتها باستمرار، مؤمنة بخطية الزمن في سيره المستمر نحو المستقبل.

لقد انفتحت شعرية قصيدة النثر على منطق لانهائية الرؤى والأشكال، فعدم الاكتمال هو المبدأ الذي يسير منطقها، إذ لا وجود لمشروع مسبق ولا نسق مكتمل، وكل نص يخلق كيانه الخاص انطلاقا من تشكيل رؤيته الكينونية وتجسده الجمالي في لحظة زمنية معينة، ولكل لحظة تصورها الفلسفي الخاص، وسياقاتها الثقافية المختلفة، هذه التي تستدعي ابتكار طرق في توظيف الممكنات اللغوية والجمالية، فكل رؤية تشكل رهانا فلسفيا معيشا، يستدعي بدوره شكله واستراتيجياته الفنية، وهو ما جعلها كتابة للذات في تحولاتها وصيرورتها الدؤوب ونزعة فردية كنسق قائم على كينونة مختلفة متغايرة باستمرار، تبحث عن أشكالها فيما هي تبحث عن معناها.

وتعد قصيدة النثر في صميم ما تعالجه من كتابة الذات والنزوع نحو المواقف الوجودية الفردانية نوعا من الشعر ما بعد الحداثي، الذي شكل موقفا مضادا من توجه الحداثة الفلسفية نحو إلغاء الذات(موت المؤلف)، لقد جعلت الحداثة النص موضوعا ينطلق من ذات صفرية فراغية، ويحقق إنتاجيته عبر تناميه داخله حسب جوليا كريستيفا التي ترى أن الذات قبل النص مختزلة في الصفر والفراغ بالنسبة للنص، بل لا وجود لها خارجه :" إن هذه الذات الصفرية خارجية بالنسبة للفضاء الذي يحكمه الدليل، وحين تصبح علاقة الدليل مع التقديرية مختزلة إلى الصفر، لتعكس الأمر وتقول لا وجود للذات (ومن ثم لا مجال للحديث عن اللاوعي)..فالذات الصفرية ونحن ندرك هنا إلى أي حد هو غير ملائم مفهوم الذات لا ترتهن بأي دليل، حتى لو كنا في فضائنا العقلاني لا نستطيع تفكيرها إلا عبر الدليل"[15]، فالذات قيمة معدومة صفرية داخل النص، ولذلك أعلنت الحداثة موت المؤلف، فلا وجود إلا للنص والنسق والمصفوفات.

لقد أدرك الشاعر في الوضع ما بعد الحداثي أن حالة التشيؤ والآلية التقنية والشتات التي يعيشها الكائن البشري تشكل مأزقا وجوديا من أصعب ما تعرضت له الإنسانية في منعرجاتها الكبرى، كما يعي جيدا أن الحالة الشعرية تمنح البشر إحساسا بتجاوز حدودهم الخاصة، والقدرة على التواصل مع ما لا يبلغه إدراكهم، فهي تطهر من القلق والهم والسطحية والابتذال، وتغير من شكل الواقع، إنها حالة مغيرة لشكل الوجود، ومتغيرة في آن، إنها حالة عابرة وتصادفية لكنها حالة تطلق بعض طاقات الكون

العميقة[16]. فلا سبيل لتجاوز حالة التيه والاغتراب واللايقين إلا بالشعر؛ الشعر الذي يبحث عن حدود لذات الشاعر فيما هو يبحث عن ملامح وتقاسيم لمعناه.

ثالثا– الانعكاس المرآوي بين الذات الشاعرة ومرايا المعنى والوجود في نص: "مكاشفات في مشهد الموت":

" مكاشفات في مشهد الموت" نص شعري للشاعر عثمان لوصيف، أخذ مساحة ديوان بأكمله، وهو نص واحد مبني على مقاطع عديدة، ينتمي هذا النص إلى قصيدة النثر التي تتبنى الرؤيا وفلسفة المعنى والوجود نسقا لكينونتها الشعرية، انطلاقا من مواجهتها في مرايا الذات الشاعرة، حيث تتجلى مواقف الذات ملونة بحس انهزامي حاد، يشبه الوقوف أمام مشهد الموت، لكنه ليس موت فرد، بكل ما يستدعيه موت الفرد ذاته من تداعيات الألم والعجز والفقد، إنه موت أشمل وأكبر، موت جماعي، يطال العالم والكون بأسره.

وإذا كان العنوان يحمل بعضا من روح متنه، فإن هذا العنوان" مكاشفات في مشهد الموت" يحيل على تلاشي الحجب بين ذات الشاعر وبين حقيقة الوجود ومونادات في لحظة الموت وموقفه الكبير، وما بينهما من مكاشفات أثناء تأمله كمشهد حي، فالمكاشفة التي جاءت على صيغة "مفاعلة" التي تفيد معنى التشارك وتدل على تشارك طرفين في الفعل نفسه، تؤكد أن الذات والعالم، يكشف كل منهما للآخر ما كان يخفيه من أسرار محتجبة، وقد جاءت جمعا لتؤكد أن هذه المكاشفة تعددت حتى وإن كانت في لحظة زمكانية ووجودية واحدة، فليس العالم والوجود وحده ما يسفر عن حقيقته للذات الشاعرة، بل حتى هذه الذات ستسفر عن حقيقتها أمام الوجود، والملفت للانتباه أن هنالك ثنائية كامنة وراء الدال " مكاشفات" هي ثنائية الحضور والغياب، والشهود والغيب، فالمكاشفة هي إخراج الداخل النفسي الحميمي الذي كان محتجبا في عالم الغيب إلى حيز الحضور العياني الظاهري، كما أنها تحيل أيضا بطابعها النفسي الروحي على تداعيات اللاشعور وما كان محتجبا من أقاصي الروح والغيب إلى عالم الشهود والتجلي اللغوي، والملاحظ أيضا أن توظيف الشاعر للدال "مشهد الموت " بدلالة المشهد على الحواس كلها، فيه إحالة على جانب مضمر يتعلق بتجسيد الموت كموقف يخرج عن الفردانية بموت الفرد، ليأخذ وضعه الطبيعي كمحطة من محطات الحياة في الكون والطبيعة، ويربط الإنسان (الكائن الذي يعي موته) بأسئلة كينونته وأسرار وجوده، ويدفعه إلى التأمل في معنى الحياة والموت، والإنسان والطبيعة، إنه يخرج بالموت من كونه حادثا عابرا ومشهد يوميا ملازما للحياة والكائنات الحية، نحو معناه الأولي ككائن غيبي

محفوف بالأسئلة، ويقع على البرزخ بين عالمين في أغلب الديانات والفلسفات: "يقال الموت فصل صغير جدا على سطح الطبيعة الأبدية، حادث تافه في الحياة الكونية الكبيرة...لكن توقف ! إن هذا العارض لهو لغز عميق ومأساة جسيمة؛ هذه النهاية الخفية لبرزخ السيرة هي لحظة تبجيل، أو بالأحرى يجد الذهن نفسه ممزقا بين حقيقتين لا يعترض عليهما معا، وهما مع ذلك متناقضتان: شباب الطبيعة الأبدي، وشباب الفرد الذي يستحيل استعادته، وبشكل ما، يسخر تجدد الربيع السنوي الذي لا يكل ولا يهدأ يسخر من قلقنا الثقيل على مصيرنا"[17] إنه الصراع الأبدي بين شباب الجوهر والمونادا داخل ذرات الكون، وبين أجزئها المادية الفانية.

في العنوان ذاته ترتبط المكاشفات ظرفيا زمانا ومكانا بموقف الموت، فالمشهد عادة ما يأخذ البعد الزماني والمكاني معا، لأن كل مشهد يتمدد على هذا البعد في تجليه ووجوده، إضافة لما تفيده " في" من هذه الظرفية، ما يعني أن المكاشفات تمت في هذا الإطار الزمكاني، لكن " في " حرف الجر" نفسه يوجهنا نحو دلالة ثانية، هي أن المكاشفات تمت بسبب مشهد الموت، إذا ما اعتبرنا أن حرف الجر في يأخذ معنى السببية والتعليل، فمشهد الموت هو الذي فتق هذه الأسرار والمكاشفات بين ذات الشاعر وبين معاني العالم والكينونة والوجود، عن طريق ما يستفزه من أسئلة وما يطرحه من إشكالات، وما يستدعيه من تأمل في أولية الكينونة الإنسانية وجوهرها.

ينتمي نص "مكاشفات في مشهد الموت " إلى نصوص الرؤيا التي تستبطن معاني الوجود والطبيعة وتكوين الذات الإنسانية، وتقف على ما يتركه الكون وتحولاته من صدى حي في ذاته، وتحفر في فلسفات الماقبل، هذه الأخيرة التي تؤوب بنا إلى الماهيات الأولى والعناصر الأصلية ومونادا الخلق، بفرض من مواقف المابعد التي شهدت تحولات جذرية في طبيعة الحياة البشرية، بفعل سيولة المتغيرات وتجددها على الدوام، بحيث تستهدف الحداثة السائلة إذابة كل الصلابة التي توارثها الإنسان من قيم الخير والحق والجمال والدين وجوهر الإنسان ككائن روحي، و إبدالها بنظام جديد يخلو منها إلى الأبد، وكأنه تغيير تام في الخلايا الجذعية والجينات الكينونية الإنسانية، وإبدالها ببطاقات إلكترونية وقطع آلية:" فإذا كانت الروح حديثة فإنها كذلك حقا طالما أيقن الإنسان أن الواقع ينبغي أن يتحرر من "الماضي المستبد"، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بإذابة المواد الصلبة (أي بتذويب كل ما يتشبث بالبقاء على مر الزمان، ويتجاهل مروره أو يسلم من تدفقه وجريانه). وعليه ظهرت الدعوة إلى تدنيس المقدس، في صورة التنصل من الملضي و إنزاله عن العرش، والتنصل من التراث قبل كل شيء، من رواسب الماضي وبقاياه في الحاضر، ومن ثم الدعوة إلى

تحطيم الدرع الواقي الذي يتشكل حديده ومعدنه من المعتقدات والولاءات التي سمحت للمواد الصلبة بأن تقاوم الصهر والإذابة"[18]

هذه القطيعة الابستيمولوجية والكينونية خلفت في الإنسان حالات الانقطاع والتفكك، والتشظي، وفقدان المعنى والحقيقة وتلاشي اليقينيات التي شكلت مطمأنه الوجودي، فغدا إنسان المابعد ذاتا مفككة وجماعات مشتتة، وهو ما يدعو إلى البحث عن الذات والمعنى لاستعادة ما تم فقدانه منهما، وهذا ما تمفلت به نصوص الرؤيا في الشعر، ومنها هذا النص.

والرؤيا كموقف شعري لا تصدر إلا عن موقف وجودي، يصر على البحث في ما فقده إنسان ما بعد الحداثة من يقين وحقيقة ومعنى، ويعمل على استعادة الكائن الغيبي والقيمي والروحي في الإنسان، فالشعر أكثر الوسائط البشرية إيمانا وكشفا عن البعد الميتافيزيقي في الحياة الإنسانية، وعليه كانت الرؤيا الموقف الملاذ الذي لاذ به الشعر في هذا الوضع الكينوني المشتت: "إن تبني الرؤيا كاتجاه شعري، يجعل الشعر متجها إلى ميتافيزياء الكون الإنساني، ليكون محاورة أنطولوجية للوجود الروحاني العميق، فالرؤيا مقاربة ذوقية صوفية لعالم الذات وأسرارها الدفينة، حيث تنتقل بها إلى عالم الغيب، الذي تتجلى فيه يقينيات الأشياء بصورتها الحقيقية الباطنة (..) أنها الاتصال بعمق الإنسان و أبعاده الداخلية، وتجاوز العقلانية إلى الحدس والتجربة، وهي التطلع نحو ما لا ينتهي، وسفر في أعماق العالم"[19]، وعليه فإن قصيدة الرؤيا هي النص الذي يجوب المناطق الغامضة المجهولة التي يكمن فيها عالم من الأسرار اللانهائية، ويخيم عليها صمت الأبد، ويعيد تخليقها لغة. لذلك عادة ما ترابط نصوص الرؤيا في المنطقة المشتركة بين الحياة والموت، وعلى حواف الكون، وكأنها منبثقة عن عالم موغل في قدم البدايات، راسخ في الأبد، يحتاج إلى من يكتشفه ويجد له ما يؤديه من بلاغة اللغة، وكأنها الشعر توصيف لحياة بعد موت، وموت بعد حياة، بالمعنى الواسع لكليهما.

يبدأ النص " مكاشفات في مشهد الموت" بمقطع يمتحور بين واقع يملؤه الجفاف والحرائق وموت العناصر، والمجاعات والرمضاء والرماد، وخراب العالم والإنسان والساعة، وبين عالم الروح حيث يخيم صمت الأبدية ونشيج العناصر في بحثها عن ملاذ، والروح التي تمزق الحجاب لتنتظر ما تتصدع عنه جبال الحجب من حقيقتها ومعناها:

جراحات الأرض تدخن، / والغابات كلها تنوء بالحروقات../ من ضيع الصدفة / ومزق خيوط الفراشة؟/ الأزرق مات.. وما من زغب أو حفيف/ أصاهر الرمضاء فتسلمني أعضائي للقيظ اللافح،/ هل

أرفع راية الرماد / وأعزف للجنائز؟ /الريشة الأخيرة تسقط في هاوية النسيان/ والموت يتثاءب../ أزحف بين الشقوق الصخرية / مثل سحلية أنهكتها المجاعات، / اتحسس أثرا لنشجيع العناصر / وأبكي خراب الساعة.../ مزقي حجابك أيتها الروح/ وانتظري / ما سوف تصدع به الجبال ![20]

في كيمياء واحدة يصهر عثمان لوصيف كينونة الذات الشاعرة في كيان العالم المعاصر، كلاهما يعاني وضع الخراب والحروقات نفسه، وكلاهما حنين إلى البدايات الأولى، فالعالم بدأ يحس بضعف قدرته على مواصلة الوجود، ومختلف أخطار الفناء تحيطه بما تركه التطور الصناعي من نتائج وخيمة على سلامة الحياة، من تلوث بيئي وتغير للمناخ، وتقلص للغلاف الجوي، وندرة في المياه، والذات فقدت معناها الإنساني وجانبها الروحي، وقيمها الأخلاقية البشرية، وهوياتها الأنطولوجية والثقافية، كل ذلك يحيل على مشهد لموت يطال كل شيء، لكنه يشعل في الروح رغبتها في تمزيق الحجاب عن حقيقتها وحقيقة العالم قبل هذا الخراب والدمار:

من هنا مر بحر تقول الحكاية/ وكانت لحورياته شؤون عذبة../ لكن ! / من ينتفض الآن في أعماقي/ ليسأل عن عرش ذهب في الذكرى ؟/ مياه حبلت ذات عصر بالأساطير والأبجديات../ من يخزني بزعانفه الحميمة/ ليشعل في براءة الموج؟/ من يقذف بي في المتاه الجميل؟/ أيها الغامض فينا/ ارفع عن وجهك القناع/ قال صوت شارد:/ بعيدة هي مشكاة الندى/ سأبحر في الجفاف../ في الملح الأسود لأجاج الزبد/سأوغل في السديم الأغبر/ لعظام نخرتها سوسة الزمن/ وألج كهوفا لما تزل تصدى بها/ أجنحة لوطاويط انقرضت ![21]

يرتد الشاعر إلى الماضي السحيق، حيث كانت صحارى الروح والجغرافيا بحارا متدفقة عذبة، وحيث تناسلت الأساطير بالمعنى والأسرار والحقيقة، وهو ما يشعل حرائق الحزن في ذاته، ويقذفه في متاه الشعر الجميل؛ طريق البوح والأوبة لعالم الأوليات والبدايات. في لحظة الشعر يبدو المعنى بوجهه الغامض، وصوت الذات الشارد يطلب منه إزاحة القناع، حيث راحة النفس كمشكاة الندى بعيدة، تبحث عن مطمأن لها في كل هذا المتاه، عن كوة للنور وسط ظلامية العصر والإنسان، وفي طريق الجفاف ذي دلالة الحقيقة، وقد أودى البشر بوفرة المياه، بفعل ما عاثوه من فساد وتخريب، ودلالة المجاز ممثلة في جفاف البشر من مياه الإنسانية والمعنى وحياة القلب، حيث لا يبقى بعد التصحر غير ملح أسود. عندها لا حل لذات الشاعر سوى البحث في أقاصي الأعماق، بالإيغال في سديم الخلق الأول، والامتزاج بغبار التكوين،

حيث الحقائق الأصلية كعظام نخرتها سوسة الزمن، وبالنفاذ إلى عمق الكهوف حيث تشكلت الحياة البدائية الأولى، بفطريتها وصفاء وجودها في الطبيعة.

يقف الشاعر بين عالمين وزمنين على طرفي النقيض: عالم الواقع المدمر بفعل أنانية البشر وتوحش العقل، وافتراس عصر الأنوار ثم عصر الحداثة لما يشكل التكوين الأصلي للإنسان؛ روحه ومعناه، بإلغائه للميتافيزيقا والدين والأساطير، وعصر الماضي السحيق الذي شهد بدأ الحياة الإنسانية وتخليق الكينونة ببعدها الروحي . وهذا ما يشكل أزمة وجودية حادة في ذات الشاعر، بين حنينها للأوبة واعتناق البدايات، وجبرية إقامتها في عصر مظلم قاسي، وهو ما يدفعه إلى موقف الاحتراق النفسي الوجودي الكبير:

من يكاشفني لحظة الفاجعة؟ /نار تتأجج في داخلي../أصرخ فتسقط أمامي/ جثة العالم وهي ترتجف/ أدنو منها فتتحول إلى صخرة مزينة بالتخاريم/ والمنمنمات البلهاء/ أتركها /وأمضي في الفراغ لحنا ناشزا![22]

بعد التأمل في أصل العالم وما آل إليه من سوء مصير، يعود الشاعر لتأمل ذاته وما لحقها من تداعيات نتيجته، فهول ما رأى جعله يستنجد بمن يخفف عنه لحظة الفاجعة، ونيران الألم والأسى والحيرة تتأجج داخله، وتبحث عمن يخفف من حرائقها، وتدفعه إلى الصراخ وهو أقصى ما يصله الإنسان من رد فعل نتيجة الألم، وهناك لم يعد يرى سوى سقوط العالم جثة أمامه، كموت جماعي يطال كل شيء حي؛ يطال البشر وقيمهم ومعتقداتهم، ويطال كائنات الطبيعة؛ هذا الموت الذي تسبب فيه الإنسان الذي تجرد من طبيعته الإنسانية، تتحول جثة العالم _ حيث جثة العالم رمز مكتنز بإحالاته الدلالية إلى غياب المعنى وتلاشي القيمة واغتيال الروح _ إلى صخرة بمجرد ما تقترب الذات الشاعرة منها، وكأن الشاعر يستحضر ضمنيا أسطورة ميدوزا التي تحيل بنظرتها كل إنسان إلى حجر، فإذا كانت ميدوزا قد حولتها نقمتها وحنقها من عقاب أثينا لها بتحويلها من فتاة جميلة إلى كائن بشع مخيف، فإن ذات الشاعر الحانقة على وحشية البشر قد اكتسبت هذه الطاقة السلبية التي تحيل العالم من حولها إلى حجارة بلهاء لا تقول شيئا، وهي حال من الفراغ واليأس والضياع، كأقصى ما يصل إليه الإنسان في موقف الألم والحنق والنقمة ..حيث يغدو كلحن ناشز لا ثبات فيه ولا نظام أو يقين الخطو والطريق:" وأمضي في الفراغ لحنا ناشزا".

في هذا الخراب المطبق والمتاه الكبير يستعيد الشاعر روح البدايات الأولى للكون ومخلوقاتها، بفعل الحنين والتوق إليها، لكنه يمظهرها بوحشية العصر الراهن:

تنين هرم يدب إلى جانبي/ بعينين جاحظتين /زواحف مشوهة الخلقة/تبسط أجنحتها العملاقة /ثم تطير /مخلوقات تلتهم مخلوقات../من ألقى بك في هذا المجهول المرعب/يا المضرج بالرغائب /المثخن بالحنين !/تراني أعيش في عصر الديناصورات؟/زهور بدائية تنمو على شفتي/كدندنات الفجر/لكنها لا تلبث أن تموت/تتصادى الأبعاد وتتهافت الأسئلة.[23]

لقد كانت المخلوقات البائدة من ديناصورات وتنانين وزواحف طائرة عملاقة رموزا لكل ما يحيل على أولية الخلق والمخلوقات وبداياتها، بما فيها المعاني الروحية العميقة التي ولد الكائن البشري مزودا بها، لكن هذا العصر المظلم المدمر لم يترك لها ما يشجعها على الخلود والبقاء، ولا يترك في الذات سوى الحنين وتوقد الرغائب إليها في هذا البؤس والخواء، حيث تجسدها شعرا كزهور بدائية برية، تمنطق ما يسكن أعماق الذات، وتزداد الأبعاد تصاديا وتقاربا بينها؛ بين ما تتوق إليه هذه الذات، وهذه الأصول التي تكمن في أعماق الروح، وتتهافت أسئلة الشاعر حولها، وتتداعى الخواطر والتأملات، والرغبة في استثارة مكامن الحقيقة في الأشياء، واستكناه أسرارها:

منتبذا مومأة من حجارة /أقف عارياعلى صخرة الأبدية/عاريا إلا من مهجتي/ خفيفا كما الخرافة/ذاهلا كما البرق/ظامئا كما القصيدة/أقف.. وبداخلي تتهشم التواريخ /وتتمزق العصور..[24]

بين الذات الشاعرة وبين الأبدية هذه المسافة من التأمل، مواجهة الكون منذ بدأ خلقه، إلى لحظة الراهن السوداوي، حيث لا حجب ولا مسافات بين الداخل وبين الخارج، بين هذه الذات في أعماقها السحيقة، وبين الأبدية في أصقاعها الزمنية البعيدة، إنه ما يشبه لحظة التعري والانكشاف، وزوال الحجب والمسافات، فكل طرف منهما يعد انعكاسا مرآويا للآخر، الذات الشاعرة التي تقف دائما في البرزخ ونقطة التقاطع بين عالمي الواقع والغيب، بكل الحنين الذي يشدها إلى لحظة خلقها الأولى، وفطرية وجودها، ونقاوة أصلها، ولحظة العالم الأولى ببراريها الأصيلة، حيث لحظة الشعر هي جسر العبور، لتكون النصوص قصائد ظامئة للحقيقة والمعنى المنبجسين من ذلك الانعكاس المرآوي، وفي هذه اللحظة بالذات تتلاشى التواريخ البشرية التي غربت الانسان عن أصله والعالم عن براريه، ولم تبق سوى طاقة التدمير، ومشهد الموت الرهيب، وأنين الكون الجريح :

التدمير معجزة الخلق/والخلق رسول الدمار/أسطروة قاتلة آيات التكوين/ولعبة هي الحياة في مشهد الموت الرهيب/ أيها الكون الجريح/ يا أنين الروح في حجارة اللغة / ألتقط جراحاتك أنا الشاعر / جرحا../جرحا../ أنفخ فيها من شجني/ فتتحول إلى زهرات مضيئة[25].

الشعر تمظهر لهذا الانعكاس المرآوي لروح الكون ومكابداته على الذات الشاعرة، بل إن روح الكون هي الثاوية في عمق الروح البشرية من لحظة الخلق الأولى، وما راكمته إليها من حنين عبر تاريخ التحولات الإنسانية، ومن تحولات عن طينة تكوينها الأول، والشعر هو فن الإنصات لهذه التراكمات والتحولات، يشبهه الشاعر بالكاربون الذي نكتشف به عمر المستحاثات والأحفورات التاريخية وما أصابها من تغيرات، ويشبهه بمجس الطبيب والكاهن والنبي، يكتشف جراحها، وينفخ فيها، فتزهر الحقيقة ويظهر المعنى.

في هذا النص يمارس الشعر وظيفة الذاكرة البشرية، وتاريخ تحولها :

أتذكر بدائيتي السحيقة/ سكنت المغارات /وتسلقت الغابات/ صارعت الوحوش وأوقعت الطرائد/ نحت الحجارة / واكتشفت النار والحديد../ دافئا كنت ومتوحشا أعترف، / سفكت الدماء وعشت فيك فسادا/ أكلت لحم بني آدم/ وأشعلت حروبا شرسة/ ابتدعت الطوطم والأوثان / أقمت طقوسا للرقص والغناء/ واجترحت الأساطير../ غير أن الألوهة الكامنة في أعماقي /منذ الأزل/ أشرقت بين ضلوعي فجأة![26]

في سرد يشبه التاريخ يبرز الشاعر تقلب الإنسان بين أصله الروحي الصافي الذي يشكل حنينه للإلهي، وبين قدرته على التطور والتحول التي تتجسد في تطوره العقلي، هذا بدوره الذي يقوم على غريزة الأنانية وحب الذات والبقاء، وفي موقف مضمر يبرز الشاعر الصراع بين الطرفين، ليصل إلى تلازمهما في ذات الكائن البشري، حيث لا تنفصل روحه عن جسده، ولا تنفصل فطرية أنانيته وغريزة حب البقاء، عن حنينه للإلهي فيه. إنهما الكل الذي يحيا فيه إلى الأبد، ولكن وفق شريعة الصراع، حيث ينتصر في كل مرحلة أحدهما على الآخر. ولكن الذات الشاعرة كائن مختلف، تتغلب فيه روحه ونوازع الغيب فيه على حياة المادة الدنيوية في لحظة الشعر، فتشرق الألوهة فيها، لينصت عبرها للأعماق السحيقة، إنها خلود الجوهر الذي لا يتلاشى، حيث ظلت روحه مبتهجة في زمهرير الموت وليل العدم وفي كل عصور الجليد، وهو ما يصيب الكون والبشر بأعطاب الشر وظلمات الدمار، وتتعطل فيه حدوسهم عن رؤية الحقيقة، لتبقى الروح بنورانيتها الملاذ، وروح الذات الشاعرة تبصر في العماء ما تعجز عنه بقية الأبصار:

ما الذي يجري أيها الصقيع القارس؟ / يا زمهرير الموت في ليل العدم! / عصر جليدي آخر يغشى الحياة / هل أهجر المكان؟ رحت أدفن في التراب كلماتي/ وأسفح للطبيعة أورادي، / لكن الروح المنبثة في كل ذرة هواء/ كانت دوما مبتهجة[27].

إن الروح الكامنة في الكون وفي البشر هي القدرة الخفية التي تحرك الحياة وتذيب طبقات الجليد الذي تراكم عبر الزمن، بكل ما اختلقه البشر لحياتهم من حياة الحضارة المادية التي تغذي الجسد، وتهمل الروح، إنه الصراع الأزلي الأبدي بين قطبي الوجود: الروح والجسد، اللوغوس والإيروس، والروح وهي الجوهر أو المركز اللوغوسي الذي يقوم عليه الكون (عالم المطلق والعقل الأول والروح والبعد الإلهي وقدرة الكينونة واللغة) في حين أن الجسد أو طاقة الإيروس هي الطاقة الحسية وشهوات الحياة، ومطالب الجسد المادية الغريزية، وللشعر القدرة في تجسيد هذين القطبين وما يدور بينهما من صراع كوني، لقدرته على الاقتراب رمزيا وعن طريق اللغة العليا الإيحائية الرموزية من القطبين ومضمراتهما الخفية، ليكون بدوره عقلا لوغوسا قائما بذاته :" يقع الشعر في أعلى مناطق الكتابة / الكلام ولذلك فهو مركز لوغوسي شارد، لا يمكن معاينته أو قياسه، فإذا كان اللوغوس في الفلسفة واضحا في شقها الميتافيزيقي بشكل خاص معبرا عن المطلق أو العقل الأول، فإنه في الشعر يتحول إلى مركز لا متعين، لا يمكن قياسه أو تحييده، ولذلك فإنه يجر معه عندما يهرب هكذا حشدا من الآفاق الشعرية غير السائدة والمنتهكة أبدا لانتظام العقل وثباته، إنه يسعى بالكلمة نحو تفتق كلي، وكذلك فإنه يواصل الفهم الرموزي للعالم باعتباره حشدا لامتناهيا من الشفرات التي تدل على أشياء أخرى لامرئية "[28] لذلك يطأ الشعر المناطق المجهولة أو هذا الجوهر المطلق اللانهائي اللامتعين، ويعيد تخليقه لغة، وهنا سر العلاقة الخفية بين اللغة الشعرية وبين الكينونة والوجود، حيث يشع المعنى بما هو كامن في الخلق:

أيتها الخليقة النائمة / هبي !/ مع النسائم الضميخة / وعانقي المرايا والضياءات / رحيمة هي السماء/ وخالد هو الجوهر ! / يا أبابيل الطير حلقي / و يا سواقي الفيروز سبحي / وسقسقي../ و أنت يا كتائب الشعر/ سيري ولا تيأسي / سنحتضن الجوهر وإن بعدت الشقة![29]

يوقظ الشاعر الأسرار النائمة في ذاته وفي الكون، ويدعوها للعودة إلى الحياة، فالجوهر الكامن فيها حي وخالد وأبدي، ولا يعصف الموت به أبدا، إنه الكامن في كل الكائنات والطبيعة، إنه المونادا التي بثها الله في كل شيء لتهبه الحياة، والتي تبقى حية بموت الأشياء ولا تفنى، وهي مركز الاتصال الخفي بين عناصر الكون وكائناته، وهي التي تسعى الذات الشاعرة للاتصال بها، وتجسيدها شعرا.وإذا كانت هذه المونادا نوعا الجوهر الشعري المطلق، فإن النص هو أحد الاحتمالات اللانهائية لتحققها، لذلك يحث الشاعر الشعراء والنصوص على عدم اليأس ومواصلة البحث عن هذه المونادا(الجوهر الأولي الروحي في ذرات الكون) واحتضانها.

إن هذا الجوهر ليس بعيدا عن الذات البشرية، بل هو داخلها، و لا يظهر إلا إذا استعادت جانبها الروحي، وإشراقات البدء والألوهة، ولحظة الشعر تجلي لهذا الإشراق عندما تلج الذات الشاعرة عالمها الأولي، حيث تنادي منادا هذه الذات أخواتها في الكون، في نوع من تآلف العناصر وتناغم المونادات:

من تغمدني بهالاته وآياته ؟/ من مزج نبضي بنبض الكون؟ / وأي بحر هذا الذي/ راح يزفر ملء خلاياي وأنسجتي ؟ / كل العناصر / وكل ذرة / تتلهف سكرى.. مجنونة/ كل شيء يشتعل وجدا / البروقات تخطفني / والرسائل العذراء ترفرف من حوالي/ مغسولة بالنداءات الحميمة / من بوسعه الآن أن يوقف / هذا الخبل المشبوب؟[30]

كحالة من الوجد والإشراق الصوفي تعثر الذات الشاعرة على معناها الملتحم بعناصر الكون الأخرى، وتتلقى وحي الأعماق الكامنة والأنوار المبثوثة في الكون، وهي اللحظة التي تخرج بالذات عن حدود الزمان والمكان والمحدود والنسبي، نحو المطلق اللانهائي:

الجوهر يتحد بعناصره/ والعناصر تلتهب بجوهرها / الهدير ينغمس في دمي/ ودمي يهاجر مع الهدير / الأغاني تغزل خيوط الغيث / والغيث ينهمر بالأغاني / البداية تتلاشى في النهاية/ والنهاية ترهص بالبداية / اللحظة تلج السرمد/ والسرمد يمتد في اللحظة/ الكون يكتنز بكينونتي / والأشياء كلها تنبض بي../ أي كائن أسطوري أنا ؟[31]

هكذا يتجلى الانعكاس المرآوي بين الذات والكون، ليكون كل منهما صورة عن الآخر المثقل بالمعنى، وتبدو الكينونة الحقيقية مشعة، متجاوزة لكل أوصافها ومختلفة عن كل تأويلاتها وما تنعت به من صفات، ولا يكون الشعر سوى استعارة عنها واحتمالات تأويلية لمعانيها، وطالما يبحث عنها فلن يعثر عليها، لأنها الجوهر والمونادا الذي تحسه الذات وتستشعره بوجدها، ولا تملك أن تعثر عليه، لأنه المراوغ الضبابي الذائب الذي بعثورها عليه تضيعه، إنه الداخلي الخارجي، الواضح الغامض، الحاضر الغائب في آن.

الخاتمة:

شكل سؤال الذات والمعنى والوجود أهم ما طرحه الوضع ما بعد الحداثي من إشكاليات، بفعل ما خلفته الحداثة من تداعيات خطيرة في معمار الذات البشرية وعلاقاتها بالغيب والمعنى والقيمة والوجود، وقد تردد صدى هذا الوضع في شعر ما بعد الحداثة، خصوصا في قصيدة النثر، هذه الأخيرة التي حفرت بعمق شديد في كيانات الذات الإنسانية، وحاولت استقصاء تمظهر الجوهر الوجودي فيها، ومختلف

الصلات التي تربطها بالكون وعناصره وأشيائه، خصوصا لما لاحظت أن ما تعيشه هذه الذات من دمار داخلي وقيمي هو انعكاس لما يعيشه العالم من دمار وخراب تمظهر في بنياته العميقة والسطحية، ولم يعد خافيا على العيان، فكأنما كل العالم يسير إلى هاوية الموت والنهايات.

وقد استطاع ديوان " مكاشفات في مشهد الموت" أن يحيط بالكثير من أسئلة الذات وصلاتها الوجودية، وأن يقف على علاقة نومادا الوجود الإنساني، وعلاقاتها بنومادا عناصر الكون وكائناته،، فكان متنا جيدا للكشف عن المناطق العميقة من الكينونة .

هوامش:

[1] حنة أرندت: الوضع البشري، ترجمة هادية العرقي، جداول للنشر، بيروت، مؤمنون بلا حدود، الرباط، ط 1، 2015، ص 27 .

[2] المرجع نفسه، ص 30.

[3] آلان تورين: براديغما لفهم عالم اليوم، ترجمة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحد العربية، بيروت، ط1، 2011، ص 164، 165 .

[4] حسام نايل: دروس التفكيك : الإنسان والعدمية في الأدب المعاصر، دار التنوير، لبنان، ط 1 ،2014، ص 29 .

[5] جان بول سارتر: الكينونة والعدم: بحث في الأنطولوجيا الفنومينولوجية، ترجمة نقولا متيني، المنظمة الغربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2009، ص 28.

[6] المرجع نفسه، ص 29 .

[7] هيغل: فنومينولوجيا الروح: ترجمة ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2006، ص 256، ص 259.

[8] لوك فيري: الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ترجمة محمد هشام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، د. ط، 2002، ص 13 .

[9] لوك فيري: الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ص 11 .

[10] حسام نايل: دروس التفكيك، ص 28 .

[11] المرجع السابق، ص 30 .

[12] علاء جواد كاظم: الإنسان الأخير: فريدريك نيتشه كأنثروبولوجي، الغصن الذهبي للنشر، بغداد، دار انثروبوس، الجزائر، ط 1، 2019، ص 44 .

[13] حنة أرندت: الوضع البشري، ص 40 .

[14] سيغمونت باومان: الحداثة السائلة: ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2، 2017، ص 21 .

[15] جوليا كريستيفا: علم النص ،ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2013، 91 .

[16] ينظر: إدغار موران: النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، أبو ظبي، ط 1، 2009، ص 167، 168 .

[17] فلاديمير يانكلفيتش : فلسفة أولى، ترجمة سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ط 1، ص 56 .

[18] زيجمونت باومان: الحداثة السائلة: ترجمة حجاج أبو جبر، ص 43 .

[19] سليمة مسعودي: الحداثة والتحريب في تشكيل النص الشعري المعاصر: دراسة في شعر أدونيس، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط 1، 2020، 12، 13 .

[20] عثمان لوصيف: مكاشفات في مشهد الموت، دار ميم، الجزائر، ط1، 2021، ص 9، 10 .

[21] ألمصدر نفسه، ص 10، 11 .

[22] عثمان لوصيف: مكاشفات في مشهد الموت، ص 13، 14.

[23] عثمان لوصيف: مكاشفات في مشهد الموت، ص 14.

[24] المصدر نفسه: ص 15 .

[25] المصدر السابق: ص 16 .

[26] المصدر نفسه: ص 39 .

[27] المصدر نفسه، ص 40 .

[28] خزعل الماجدي: العقل الشعري، دال النايا، دمشق، 2011، ط1، ص 45 .

[29] عثمان لوصيف: مكاشفات في مشهد الموت: ص 42 .

[30] المصدر نفسه: ص 71، 72 .

[31] المصدر السابق: ص 68، 69 .